آباء الكنيسة والوثنيّون والوثنيّة

الأب جوزف بوُحَجَر اليسوعيّ*

أبتدئ بملاحظة تمهيديّة مهمّة، وهي أنّ النصوص المستشهَد بها هنا تقتصر على شواهد مقتبسة من أعمال الآباء، اليونانيّين واللاتين. وأكثريّة هذه النصوص مأخوذة عن آباء عاشوا قبل حلول السلام في الكنيسة، وقد خالطوا بعض الوثنيّين وعاشوا معهم، والعديد منهم شبُّوا في مجتمع وثنيّ. كما أنّنا لن نهتمّ هنا بمراقبة علميّة وغير منحازة لظاهرة من الظواهر، بل بمواقف شخصيّة: فإنّ يُسْطِينُس ليس هو أُورِيجانيس، وطرطليانس ليس هو إقليمنضس الإسكندريّ.

١ - المبدأ الأساسيّ

إنّ قراءة سريعة أولى لتلك الشواهد المأخوذة عن الآباء تُشعرنا بالتمييز الذي يقيمه الآباء بين الدين الوثنيّ في حدّ ذاته (عبادة الأوثان، والأساطير وأنساب الآلهة) من جهة، والوثنيّين أنفسهم وثقافتهم (ولا سيّما الثقافة الفلسفيّة) من جهة أخرى. وبقدر ما كانوا يُجمعون على شجب عبادة الأوثان، كانوا متّفقين على الاعتراف بالقيم البشريّة والدينيّة الحقيقيّة التي قد تكون عند هؤلاء الوثنيّين وفي نهج فلسفيّ معيَّن. وهم، بعملهم هذا، يُظهرون أمانتهم لمبدأ حبّ الله للبشَر الذي يدلّ عليه خلق

(*) أستاذ في المعهد العالي للعلوم الدينيّة وفي معهد اللغات والترجمة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

العالم والتجسّد أفضل دليل. فالإنسان، الذي خلقه الله، خدعه الشيطان وخلّصه خالقه نفسه، وهذه حقيقة أساسيّة نجدها دائمًا في خلفيّة فكر الآباء.

وأيًا كانت آراء هؤلاء الآباء الشخصيّة، يمكننا أن نقول بأنّ نصّ ١طيم ٢/ ٤ الشهير - «إن الله الذي يريد أن يخلُص جميع الناس ويبلغوا إلى معرفة الحقّ» - لا يبتعد عن ذاكرتهم. وهذا النصّ هو الذي حمل طرطليانس، وهو الذي كان قليل التعاطف مع الوثنيّة، لا بل مع الوثنيّين أنفسهم، على القول بأنّ «النفس هي مسيحيّة بحكم الطبيعة». وهذا يعني، كما شرحه الأب دي لوباك (de Lubac)، أنّ الحقائق الأساسيّة الكبرى التي يعترف بها المسيحيّون، والتي نسمّيها اليومَ «اللاهوت الطبيعيّ»، تؤكّدها حركة النفس الطبيعيّة[١].

وبهذا الروح قال إيريناوس الليونيّ بأنّ «كلمة الله لم ينقطع عن الحضور للجنس البشريّ». وحضور اللوغس هذا هو جزء من تدبير الخلاص الإلهيّ، كما يفهمه إيريناوس، فإنّ مذهبه في الاستجماع (récapitulation) يفتح، عند القارئ، نظرة شموليّة إلى تاريخ العالم. إنّ الاستجماع هو أنّ الكلمة المتجسّد قد استعاد في الحقيقة خلق العالم وتاريخ البشر كلّه، منذ اللحظة الأولى حتّى نهاية الأزمنة.

وقد قال القدّيس هيلاريون البواتياني (de Poitiers)، في تعليقه على المزمور ١١٨: «إنّ أشعّة الآب هي مستعدّة، منذ الأزل، للسطوع حيث تنفتح نوافذ النفس»[٢]. وهذا النصّ يقابله نصّ آخر لأوغسطينس: «إنّ الحقّ نفسه، الإله ابن الإله، باتّخاذه الإنسان من دون ملاشاة الإله، أقام هذا الإيمان ليفتح للإنسان ذلك الطريق الذي يُرشد، بواسطة الإنسان الإله، إلى إله الإنسان»[٣]. فالمسيح، الإنسان الإله، هو الوسيط الوحيد

---

(١) H. DE LUBAC, *Paradoxe et mystère de l'Eglise*, p. 126.

(٢) *Sur le psaume 118, 6*

(٣) AUGUSTIN, *Contre les académiciens*, III, 19, 42.

بين الله والبشر، جميع البشر بما فيهم الوثنيّون. «إنّه الطريق الذي يقود إلى معرفة الله»[٤].

٢ - مواقف الآباء المؤيِّدة

يسلّم الآباء بمعرفة «طبيعيّة» حقيقيّة لله، خالق السماء والأرض، وقبل كلّ شيء، خالق الإنسان. وليست هذه الحقيقة نتيجة منطقيّة فقط لإيمانهم المسيحيّ، بل هي أيضًا نتيجة اختبار شخصيّ قاموا به، إمّا في وسطهم الحياتيّ الطبيعيّ، وإمّا في أثناء دروسهم الأدبيّة. فلا يحسن بنا أن ننسبها بسهولة إلى المحبّة المسيحيّة وحدها أو إلى حبّ الأعداء المسيحيّ.

أ - إنّ جميع البشر يعرفون الله معرفة «طبيعيّة»

يعرض يسطينس في «دفاعه» الثاني، وضع المسيحيّين المؤسف ويستغيث بعدل الأمبراطورَين مرقس أوريليوس وأنطونينس الورع لكي يضعا حدًّا لوضع الأمور الظالم هذا. وينتهي ذلك الدفاع بهذا التأكيد: «فإنّ الإنسان، «بحكم طبيعته»، يستطيع أن يعرف الخير والشرّ»[٥]. في نظر يسطينس، لا يتّجه حسّ العدل، حسّ معرفة حُسن التصرّف كما يجب، عن الانتماء إلى هذا أو ذاك الدين أو إلى الحصول على تربية دينيّة معيَّنة، بل هو شعور مشترك بين جميع البشر، ونوع من الحسّ الفطريّ. والحال أنّ هذا يقتضي أن يكون الله قد خلق جميع البشر، لأنّه هو وحده كان قادرًا على تأصيل هذا الحسّ في طبيعة الإنسان.

أمّا في نظر إقليمنضس، فإنّ معرفة الله تظهر عند غير المسيحيّين، لا في الدعوة الباطنيّة إلى الاستقامة التي يختبرها كلّ إنسان فقط، بل في تفكيره أيضًا وفي ثمار فكره: «فإذا صحّ أنّ اليونانيّين التقطوا، على وجه أفضل ممّا فعل الآخرون، بعض شرارات اللوغس الإلهيّ وأسمعوا بضع

---

(٤) يو ١٤/٦.

(٥) JUSTIN, *II^e Apologie*, 14^e.

حقائق نادرة، فإنّهم يدلّون أيضًا بذلك على أنّ قدرة الحقيقة لم تكن محجوبة، بل يتّهمون أنفسهم بالضعف، بما أنّهم لم يُدركوا الغاية»[٦].

إنّ إقليمنضس يستعين بإنتاج غير المسيحيّين أنفسهم الأدبيّ، ولا سيّما بالمؤلّفات الفلسفيّة، للدلالة على أنّ الحقيقة لم تكن محجوبة عنهم. ويضيف إقليمنضس أنها ليست وقفًا على المسيحيّين، وأنّ الحقيقة عن الله وعن الإنسان ليست تعليمًا سحريًّا مقصورًا على النخبة، وأنّ الذين لم يتلقّوا وحيًا وضعيًّا من قبل الله كان في إمكانهم أن يصلوا إلى الحقيقة. ونجد هنا الفكرة نفسها عند يسطينس، وهي أنّ خلق العالم عن يد الله هو الذي يعطي الإنسان حسّ الحقيقة الفطريّ هذا والرغبة في معرفته.

أمّا طرطليانس فكان من طبع مقدود من صخر وقليل الميل إلى التعاطف مع الوثنيّين، فكان يرتاح إلى وصف خرافاتهم في عبادة الأوثان. لكنّ عقيدة خلق العالم كانت تمنعه أن يكون سلبيًّا تمامًا بالنسبة إلى غير المسيحيّين. فأيًّا كانت أضاليل الناس وانحطاطهم، فهو يرى أنّ فيهم سمة خالقهم، ذلك الحسّ الفطريّ لمعرفة الحقيقة.

والقدّيس أوغسطينس يتناول، في كتابه مدينة الله، موضوع جهل اسم الله الحقيقيّ: «إذا شعر الضعف البشريّ بأنّ إلٰهًا فقط يستطيع أن يمنح السعادة، وإذا كان هذا أيضًا شعور أناس يكرّمون العديد من الآلهة ومن بينهم جوبيتر، ملك الآلهة، لأنّ أولئك الناس كانوا يجهلون اسم الإله الذي يوزّع السعادة، فلإنّهم أرادوا أن يسمّوه باسم النعمة التي كانوا يستفيدون منها. فلقد اعتقدوا بصواب كافٍ بأنّ السعادة لا يمكن أن تأتيهم من جوبيتر نفسه الذي كانوا يكرّمونه، بل من الذي يرون أنّه يجب عليهم أن يكرّموه باسم السعادة. ومن هنا أؤكّد طبعًا أنّ الوثنيّين آمنوا بأنّ السعادة تأتيهم من إله غير معروف. فليُبحَث عنه، فهو الذي يُكرَّم، وهذا يكفي»[٧]. ويلاحظ أوغسطينس أنّه إذا كان اسم الإله الأعلى خاطئًا، لأنّ

---

(٦) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Protreptique*, 7,74.

(٧) AUGUSTIN, *La Cité de Dieu*, IV, 25.

الوثنيّين كانوا يجهلون كلّ شيء عن الوحي المسيحيّ، فإنّ حسّهم الداخليّ، الذي يُرشده حسّ الله المشترك، كان صائبًا، ومن هنا اسم السعادة الذي كانوا ينسبونه إلى إله غير معروف يستطيع وحده أن يمنحها. وهنا يعود أوغسطينس إلى موضوع الخطبة التي ألقاها بولس في الأريوباغس. وإلى هذا الموضوع يضيف موضوعًا ثانيًا هو موضوع أسلافه في الإيمان، أي حسّ الله الذي منحه الخالق لجميع البشر.

ب - «بذور» حسّ الله

يروق ليسطينس وإقليمنضس الإسكندريّ أن يشبّها السمة التي جعلها الخالق في النفس البشريّة بـ «بذور» أو بـ «شرارات» كلمة الله. نجد في ذلك تعليم مقدّمة إنجيل يوحنّا، وهو أنّ الله خلق كلّ شيء بواسطة كلمته. فالإنسان يحمل إذًا سمة اللوغس الإلهيّ الذي هو حقّ وحياة. ويسطينس، في كلامه على ما يجده عند الفلاسفة والشعراء الوثنيّين من خير، يختم بقوله: «عندهم جميعًا نجد بذور حقيقة، ولكن ما يدلّ على أنّهم لم يفهموا كما يجب هو أنّهم يناقضون أنفسهم»[٨].

إنّ آباء الكنيسة لم يُنكروا على الإطلاق الدروس الأدبيّة والفلسفيّة التي تابعوها في شبابهم، وإن انتُقدوا غالبًا على قيمة هذا الأدب وبعض الكتّاب. أمّا أفلاطون وسقراط، فإنّهم كانوا يقدّرونها أفضل تقدير، لأنّهما استفادا، أكثر ممّا استفاد غيرهم، من حضور الكلمة (اللوغس) في خلقه العالَم. فقد كتب يسطينس: «لكنّ المسيح، الذي عرفه سقراط إلى حدّ ما (لأنّه كان الكلمة الحاضر في كلّ شيء)»[٩]... وكتب أيضًا إقليمنضس الإسكندريّ في الإرشاد، وهو كتاب موجّه أوّلًا إلى الوثنيّين المثقّفين الذين يجتهدون في معرفة الدين المسيحيّ: «إذا التقط اليونانيّون، أكثر ممّا فعل الآخرون، «بضع شرارات من اللوغس الإلهيّ» وأسمعوا بعض الحقائق النادرة، فهم يدلّون بذلك على أنّ قدرة الحقيقة لم تكن

(٨) JUSTIN, *I^re Apologie*, 44.

(٩) JUSTIN, *II^me Apologie*, 10.

محجوبة، ولكنّهم اتّهموا أنفسهم بالضعف، بما أنّهم لم يدركوا الغاية»[١٠]. إنّ هذا النصّ الوجيز يلخّص تعليم «بذور الكلمة» الذي نجده عند يسطينس، ويشبّهها إقليمنضس بـ «شرارات» النور الذي هو الكلمة، وهو الذي يقول فيه يوحنّا الإنجيليّ إنّه نور العالم، نور البشر[١١]. ويتابع إقليمنضس فكرة يوحنّا، قائلًا إنّ نور الحقّ لم يُقبَل، إلّا حين «أسمع الوثنيّون بعض حقائق نادرة». ولكنّ هذا النور، بسبب حضور الكلمة في خلقه العالم، وُفِّر دائمًا للبشر ولم يُحجب عنهم.

ويستعمل إقليمنضس تشبيهًا ثانيًا، فيقول إنّ سمة الكلمة هي «بعض النقاط المنبثقة من الينبوع الإلهيّ»: «(. . .) فإنّ جميع البشر تلقّوا عامّة بعض النقاط المنبثقة من الينبوع الإلهيّ، علمًا بأنّ أكثرهم حظوةً هم الذين يصرفون وقتهم في الدرس. ولذلك يعترفون، حتّى بالرغم من أنفسهم، بأنّ الله واحد»[١٢]. ويشدّد على أنّه ما من أحدٍ يُحرَم من «حسّ الله»، وهو حسّ يؤلّف جزءًا من طبيعة الإنسان نفسها. ما من أحد يُحرم من الوصول إلى معرفة الإله الحقّ. ولذلك فالذين يريدون الوصول يصلون إلى معرفة الله. ويضيف إقليمنضس أنّهم يصلون إليها «حتّى بالرغم من أنفسهم». فيمكننا أن نتساءل هل هذه البذور، أو النقاط، أو الشرارات، لا تعبّر في الواقع، في فكر آباء الكنيسة الأوّلين هؤلاء، عن نوع من النعمة يرتبط بـ «سرّ» خلق العالم: «سرّ» العهد الآدميّ. ولكن، إذا كانت هناك نعمة، فإنّ الإنسان مدعوّ إلى التعاون معها، وهذا النقص في «التعاضد» مع النعمة هو الذي يأخذه الآباء على الوثنيّين، كما سنراه لاحقًا.

ج – حصل الوثنيّون على معرفة «جزئيّة» لله

لكنّ «حسّ الله» ليس هو الحقيقة كلّها، إذ إنّ «بذور الكلمة» ليست الطريق المؤدّي إلى معرفة الله التامّة. ليست بالضبط إلّا بذورًا. فلا ينسى

---

(١٠) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Protreptique, 7,74.*

(١١) يو١/٤ و٩، و٨/١٢، و٩/٥، و١٢/٤٦.

(١٢) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Protreptique, 6,68.*

الآباء أن يشدّدوا على أنّ وحي الله في يسوع المسيح لا يمكن التحايل عليه. ولذلك، ففي أفضل الافتراضات، لا تستطيع هذه «الشرارات» أن تكون سوى معرفة جزئيّة لله.

كتب يسطينس في الدفاع الثاني: «إنّ جميع الحقائق، التي اكتشفها الفلاسفة والمشرّعون وعبّروا عنها، هم مدينون لها بكونهم وجدوا الكلمة إلى حدّ ما وشاهدوه، ولأنّهم لم يعرفوا الكلمة كلّه، الذي هو المسيح، كثيرًا ما ناقضوا أنفسهم»(١٣).

يقصد يسطينس هنا بعض الأقدمين الذين قبلوا بذر الحقيقة المُلقى فيهم. لكن مشاهدتهم للكلمة كانت جزئيّة، تحتاج إلى أن يُكملها وحي الله التامّ في المسيح. وما عرفه الوثنيّون عن الله، عرفوه كمِن خلال ضباب، ولذلك كانوا يستخلصون نتائج متناقضة. ويضيف يسطينس بعد ذلك بقليل: «كلّ الخير الذي علّموه هو ملكنا نحن المسيحيّين (...). إستطاع الكتّاب أن يروا الحقيقة بغموض، بفضل بذر الكلمة الذي أُلقي فيهم. لكن امتلاك بذرٍ ووجوهِ شبهٍ متناسب مع قوى الطبيعة يختلف كلّ الاختلاف عن الهدف نفسه الذي تنبثق المشاركة فيه والاقتداء به من النعمة الصادرة عنه»(١٤). يشدّد يسطينس كما فعل أعلاه، على رؤية الحقّ غير الكاملة، ويُدخل، بعد ذلك، ما للنعمة المؤلّهة التي تُعطى لنا في المسيح من بُعد فائق الطبيعة. ويصف معرفة الله الطبيعيّة بأنّها «وجه شبه متناسب مع قوانا الطبيعيّة. ولكن ما يُدعى إليه الإنسان هو، في الواقع، وجه شبه يصل إلى ما بعد القياس البشريّ، مهما كان كبيرًا وشريفًا، فإنّ الإنسان مدعوّ إلى المشاركة في حياة الله نفسها، بفضل تبنّيه في المسيح، وهذا يفوق بكثير كلّ قوّة بشريّة(١٥).

---

(١٣) JUSTIN, *II° Apologie, 10.*

(١٤) JUSTIN, *II° Apologie, 13.*

(١٥) نجد هنا شيئًا من التشابه بفكر إيريناوس الليوني في تقدّم الإنسان حتّى يصل إلى سنّ بلوغه، إلى ملء قامته، بحمله الروح في خطى المسيح الكلمة.

أمّا إقليمنضس فهو يفضّل التعبير عن معرفة الله الجزئيّة هذه بعبارة «أشلاء مبعثرة». فقد قال في كتابه المعنون مجموعة أبحاث: «كذلك أنزلت الفلسفة البربريّة والفلسفة اليونانيّة بالحقيقة الأزليّ تقسيمًا لم يعد تقسيم ديونيسيوس بحسب الأسطورة، بل تقسيم الكلمة الأزليّ بحسب اللاهوت. ولكن، إن عدنا فجمعنا الأشلاء المبعثرة وألّفنا وحدتها، شاهدنا، من دون التعرُّض للخطر، الكلمة الكامل، الحقّ»[١٦]. إنّ إقليمنضس يُفهمنا صورة «الأشلاء المبعثرة»، بتلميحه إلى الإله الوثنيّ ديونيسيوس الذي يقال إنّه مات شرَّ ميتة، حين مزّقت كاهنات باخس السكارى جسده. ولم يرَ الفلاسفة الوثنيّون إلّا جزءًا صغيرًا جدًّا من الحقّ، من دون الوصول إلى رؤية إجماليّة، لا يستطيع إلّا الحقّ المتجسّد أن يكشفها للبشر.

وفي نهاية هذا القسم المكرَّس للمعرفة التي يستطيع الوثنيّ أن يصل إليها، إليكم هذا النصّ الجميل الذي يرقى إلى القرن الرابع، أي إلى زمن كانت فيه المسيحيّة ديانة معترفًا بها ورسميّة. نحن مدينون به لقلم غريغوريوس، أسقف نيص: «فالروح، بسبره أعماق السرّ بنظرة منتبهة، يتمتّع، إلى حدّ ما، بشعور داخليّ خفيّ بالتعليم الخاصّ بمعرفة الله، من دون الوصول إلى تسليط الأضواء، بالكلام، على أعماق هذا السرّ التي لا توصف»[١٧].

فمع ظهور القدّيس غريغوريوس، نصل إلى زمن تفكير أصفى، في ما يختصّ بالوثنيّين. ففي الفصل الثالث هذا من مؤلّفه مقالة في التعليم المسيحيّ، يريد غريغوريوس أن يحدّد موضع المسيحيّة بالنسبة إلى اليهوديّة وبالنسبة إلى الوثنيّة. فيتناول، هو أيضاً وعلى طريقته، موضوع معرفة الله الجزئيّة، قائلًا إنّ ذهن كلّ إنسان أيًّا كان يتمتّع «بالشعور الداخليّ بالتعليم الخاصّ بمعرفة الله». لكنّ الإنسان ليست له القدرة على

---

(١٦) CLEMENT D'ALEXANDRIE: *Les Stromates, I, 13, 57, 6.*

(١٧) GREGOIRE DE NYSSE, *Discours catéchétique, 3, 1.*

إيجاد عبارة وافية للسرّ، أقلّ ما يمكن. وهو يشعر شعورًا غامضًا بوجود الله الذي لا يستطيع أبدًا أيّ جهد من ذكائه أن يعرضه عرضًا تامًّا. فإنّ كلّ معرفة هي جزئيّة ومتعلّقة بالعقل البشريّ. و«الشعور الداخليّ الخفيّ» وحده يستطيع أن يجعله على الطريق الذي لا يوصله إلّا بفضل وحي الله في المسيح.

د - العناية الإلهيّة تربّي الوثنيّين وتهتمّ بهم

أحرز موضوع العناية الإلهيّة نجاحًا كبيرًا في تفكير الآباء. وهو مبنيّ على عقيدة خلق العالم، لأنّ الخالق لا يمكنه أن لا يهتمّ بمخلوقاته. ويسطينس كان أوّل مَن اعترف بهذا اليقين، حين كتب في «دفاعه» الموجّه إلى مجلس الشيوخ الرومانيّ: «ينبئ (الله) بالمستقبل بالروح النبويّ، ليدعو البشر إلى الفهم والذكرى، ويُظهر بذلك اهتمامه بهم وعنايته الإلهيّة»[١٨]. في هذه الفقرة، يؤكّد يسطينس أوّلًا أنّ أنبياء العهد القديم لم يتنبّأوا للشعب اليهوديّ فقط، بل إنّ أقوالهم كانت موجّهة إلى جميع البشر. والله يدلّ على عنايته الإلهيّة، بالنسبة إلى الوثنيّين - كما سيكرّر يسطينس نفسه وآخرون بعده -، بأنّ أجزاء الحقيقة الصغيرة التي عند الفلاسفة وصلت إليهم بفضل الاقتباسات التي أخذوها عن الكتّاب المُلهَمين.

والقدّيس أوغسطينس، الذي يشاهد العناية الإلهيّة في العمل منذ بداية البشريّة، وصل إلى النتائج التي رأيناها عند يسطينس. فقد كتب: «منذ بداية الجنس البشريّ، لم تنقطع النبوءة، تارة أكثر غموضًا، وتارة أكثر وضوحًا، بحسب ما رآه الله مناسبًا لكلّ زمن، ولم يخلُ الناس الذين آمنوا به، منذ آدم إلى موسى، في شعب إسرائيل الذي كان، بنوع من السرّ الخاصّ، شعبًا نبويًّا، وفي سائر الشعوب على السواء، قبل التجسّد»[١٩]. على غرار يسطينس، يرى أوغسطينس في النبوءة الطريقة المفضّلة عند الله

---

(١٨) JUSTIN, *1e Apologie, 44.*

(١٩) AUGUSTIN, *Lettres 102, 12.*

في ممارسة عنايته الإلهيّة. لكنّ أوغسطينس يذهب إلى أبعد من ذلك. فإنّ النبوّات التي يتكلّم عليها لا يبدو أنّها حتمًا نبوّات أنبياء العهد القديم. وهو يصفها بأنّها «تارة أكثر غموضًا، وتارة أكثر وضوحًا». فهل أراد بذلك أن يميّز بين نبوّات العهد القديم والنبوّات التي كانت خارجة عن العهد؟ ليس هذا أكيدًا، بل الأكيد هو أنّ النبوءة كانت تناسب «كلّ زمن»، وبالرجوع إلى إقليمنضس الإسكندريّ[٢٠]، تناسب «كلّ شعب».

جرؤ إقليمنضس على القول، في الكتاب السادس من مجموعة الأبحاث[٢١]، وكأنّه يردّد صدى الآية الأولى من الرسالة إلى العبرانيّين، أنّ الله، كما أنّه أقام أنبياء عند اليهود، أقام عند اليونانيّين «أنبياء آخرين يتكلّمون لغتهم»، ويُعدّونهم لتلقّي الوحي في يسوع المسيح.

وموضوع «الأنبياء» الوثنيّين نجده أيضًا عند أوريجانيس، حين يعلّق على حادثة العرّاف الوثنيّ بلعام، الذي بارك اليهود بدل أن يلعنهم: «كانوا يُجرون ذبائح غير مقدّسة»[٢٢]، وكانت العرّافة تحاول أن تحصل بالسحر على اتّصال. لكنّ الله، الذي يريد أن تفيض النعمة حيث كثرت الخطيئة[٢٣]، يتنازل فيُنعم بحضوره، ولا ينفر من تلك الرتب التي يُحتَفَل بها بحسب الضلال الوثنيّ، لا بحسب النظام الإسرائيليّ، لكنّه لا يتجلّى في الذبائح، بل يُظهر نفسه للذي يأتي إلى لقائه. ويبلّغ كلامه وينبئ بأسرار المستقبل على لسان الذي هو أكثر تمتّعًا بثقة الوثنيّين وإعجابهم، لكي يستطيع الذين لا يريدون أن يؤمنوا بأنبيائنا أن يؤمنوا بعرّافيهم وفاتحي بَخْتهم»[٢٤].

إنّ أوريجانيس يبني عمل الله هذا على أساس كتابي، وهو إلهام الوثنيّ بلعام وما ورد في الفصلَين ٢٣ و٢٤ من سفر العدد. وهذا الأساس

---

(٢٠) Cf. *Les Stromates VI, 5.*

(٢١) Cf. Les Stromates *VI, 5.*

(٢٢) عدد ٢٣/١٤-١٧: بلعام وبالاق.

(٢٣) روم ٥/٢٠.

(٢٤) ORIGENE, *Homelies sur les Nombres, XVI, 1.*

هو روم ٥/ ٢٠. ويرى أوريجانيس في إصغاء الله إلى صلوات بلعام وفي رضاه عن محرقاته ظهورًا لرأفة الله المجّانيّة الفائضة في صميم العبادة الوثنيّة. ويوضح أوريجانيس بعد ذلك أنّ ما يستميل الله ليس هو الذبائح التي تستميل أيَّ إله وثنيّ، بل الإنسان الذي يبحث عن كلمة من قبل الله. والله في رأفته المجّانيّة يلبّي طلبه، «فإنّه يظهر للآتي إلى لقائه». والحال أنّ بلعام لم يكن أيّ إنسان كان، لأنّه كان يحظى بتقدير شعب موآب وملكه وثقتهما، كما أنّ الله، على ما ورد بقلم إقليمنضس، أقام أكثر اليونانيّين اعتبارًا ليكونوا أنبياءهم[٢٥]. ولماذا؟ السبب هو بسيط. فإنّ أوريجانيس يصرّح بأنّ الله، في رغبته أن «يخلّص جميع البشر»، يتكيّف مع العقليّة الوثنيّة وأحكامها المسبقة[٢٦]. ونضيف أخيرًا أنّه ليس من المهمّ أن يكون الشخص الذي يختاره الله مستحقًّا، شرط أن يُصغى إليه وأن تصل رسالته إلى الوثنيّين. والحال أنّ بلعام كان فاتح بَخْت، وشخصًا كان الآباء يشبّهونه بالشياطين ويجعلونه في خدمتهم.

وكان إقليمنضس ينطلق من فكرة استعداد إنجيليّ لليونانيّين، فلم يتردّد في تسمية هذا الاستعداد عهدًا. فإنّنا نقرأ في «البحث السادس» هذا النصّ: «إنّ الله أعطانا العهد الجديد، أمّا عهدا اليونانيّين واليهود فهما العهدان القديمان. ونحن، الذين يُكرّمون هذا العهد الذي من نوع ثالث، فإنّنا المسيحيّون. وهذا ما يدلّنا بوضوح على أنّ الإله الواحد هو معروف عند اليونانيّين على طريقة الأمم، وعند اليهود على طريقة اليهود، وعندنا أخيرًا في الروح القدس. وفضلًا عن ذلك، يدلّنا هذا على أنّ الإله الواحد هو الذي أعطى العهدين والذي أعطى اليونانيّين الفلسفة اليونانيّة التي بفضلها يمجّد القدير عند اليونانيّين. فبالتربية اليونانيّة وبتربية الشريعة، ليس هناك إلّا شعب واحد، والذين لهم الإيمان هم متّحدون، لا منقسمون بالتعاقب إلى ثلاثة شعوب، خشية أن يتصوّر الناس أنّ هناك

---

(٢٥) راجع النصّ السابق.
(٢٦) قد نستطيع أن نتحدّث عن انتقاء الله.

ثلاثة طبائع بشريّة. لكنّ هذه الشعوب المتّحدة يربّون بعهود مختلفة[٢٧]. إنّ إقليمنضس يُقيم توازيًا بين اليهود وغير اليهود. وبما أنّ مجمل النبوات التي سبقت مجيء المسيح عند اليهود تُسمّى عهدًا، فما من داعٍ إلى عدم تسمية الفلسفة اليونانيّة أيضًا عهدًا. ولأنّ إقليمنضس يعتقد بأنّ تدبير الله الخلاصيّ المقدَّم لجميع البشر يتمّ في زمن البشر، فهو يستطيع أن يتكلّم على «عهدٍ من نوع ثالث» يكرّمه المسيحيّون. فمنذ خلق الإنسان، لم يكفّ الله عن إعداد الإنسان لمعرفته تمامًا في ابنه، الكلمة المتجسّد. لكنّ هذه المعرفة في الابن سبقتها معرفة جزئيّة منسجمة مع وضع كلّ مجموعة من مجموعات البشر، من يهود ووثنيّين. وبحكم اختيار اليهود من قبل الله، فإنّ معرفتهم لله كانت أكثر مباشرة، وإن بقيت جزئيّة، في انتظار تجلّي الله النهائيّ في المسيح. ومعرفة الله الجزئيّة هذه «على طريقة اليهود» كانت تدلّ بوضوح على أنّ الله المتسامي يستطيع ويريد أن يكون قريبًا جدًّا وأليفًا للناس الذين اختارهم ليشهد على هذا القرب. أمّا معرفة الله الجزئيّة «على طريقة الوثنيّين» فكانت تهدف إلى الدلالة على أنّ الإله الخالق هو حقًّا خالق جميع البشر بدون استثناء، وعلى أنّهم جميعًا يحقّ لهم أن يستفيدوا من عنايته الإلهيّة. هذا وجه من الوحي كثيرًا ما نسيه اليهود.

هـ - الفلسفة: «ثقافة تمهيديّة» لليونانيّين

نجد عند إقليمنضس الإسكندريّ عددًا من النصوص التي تتوسّع في فكرته عن الفلسفة بصفتها أداة مختارة لإعداد الوثنيّين من أجل المسيح. ولكن، قبل التطرّق إلى هذه السلسلة من النصوص، نقرأ العرض الذي يقدّمه القدّيس أوغسطينس عن الفلسفة «الصحيحة تمامًا»، وهو يشرح، في أحد مؤلّفاته، لماذا يرى، كما كتب إقليمنضس، أنّ الله هو مصدر الفلسفة: «كان لا بدّ من قرون كثيرة ومناقشات كثيرة لكي تُعَدّ فلسفة صحيحة تمامًا، ولكنّي أعتقد الآن بأنّها قد تمّت. فإنّ هذه الفلسفة ليست فلسفة هذا العالم، التي تمقتها أسرارنا بصواب، بل فلسفة العالم المعقول، الذي، لولا أنّ الإله السيّد، المملوء رحمة لشعبه، لم يَحْنِ

(٢٧) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates VI*, 5.

ويخفض إلى الجسد البشريّ سلطة العقل الإلهيّ، لكي تستطيع النفوس التي تحثّها، لا الوصايا فقط، بل أعمال هذا العقل الإلهيّ، حتّى بمعزل عن المجالات المدرسيّة، أن تعود إلى نفسها وتنظر إلى الوطن، كما استطاعت حدّة العقل أن تعيد إلى العالم المعقول تلك النفوس التي تُعميها ظلمات الضلال المتعدّدة الأشكال والمدفونة تحت كومة الأدناس الجسديّة»[٢٨]. يميّز أوغسطينس أوّلًا بين فلسفة وفلسفة. فهناك فلسفة العالم - المبنيّة، في أغلب الظنّ، على المغالطات - «وفلسفة العالم المعقول، وهي فلسفة صحيحة تمامًا». هناك، من جهة أولى، فلسفة قائمة على استدلالات دقيقة، ينصرف فيها الإنسان إلى التلذّذ بإقامة الدليل الشكليّة، ويسمّيها أفلاطون، على ما ورد بقلم إقليمنضس، «أسلوبًا خداعيًّا»، وأرسطو «فنّ النهب»[٢٩]. ومن جهة أخرى، هناك الفلسفة التي هي ثمرة بحث طويل وصادق يقوم به الإنسان للتقرّب إلى الحقيقة. ففي أثناء هذا البحث يدفع الله النفس البشريّة إلى التنبّه لكون كلّ شيء يصدر عنه ولكون الإنسان مدعوًّا إلى العودة إلى خالقه.

ألا نجد في ذلك نوعًا من التعاضد الذي يتمّ بين اللوغس (العقل) الإلهيّ والعقل البشريّ؟ وهذا التعاضد ينمو بطريقة تشبه ما يعلّمنا العهد القديم إيّاه في ما يختصّ بالشعب اليهوديّ، حيث يصبح الله، بحسب تعليم آباء الكنيسة التقليديّ، «مؤدّب شعبه وقائده، بفضل كلمته وروحه. وهنا أيضًا، في حالة الفلسفة، نرى أنّ الله «مملوء رحمةً لشعبه»، لذلك الشعب الآخر الذي لم يعرف نعمة الاختيار الإلهيّ. فالعقل البشريّ، الذي يقوده ويُرشده اللوغس الإلهيّ، يستطيع إذًا، بعيدًا عن كلّ خطاب بشريّ متعجرف ومرتفع فوق نفسه، أن يصل إلى شيء من معرفة الله وأن يكون مستعدًّا لقبول وحي الخلاص في المسيح. ففي نظر أوغسطينس، كما في نظر إقليمنضس، كانت الفلسفة للوثنيّين «عهدًا» يُعدّهم للدخول في العهد الجديد.

---

(٢٨) AUGUSTIN, *Contra academicos, III, 19, 42.*

(٢٩) Cf. CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, I, 8.* Voir aussi *ibid.*, I, 3.

و – دليل الاقتباسات المأخوذة من العهد القديم

وصلنا إلى دليل كثيرًا ما نجده عند آباء الكنيسة في القرون الأولى: وهو دليل الاقتباسات التي يأخذها الفلاسفة أو الحكماء الوثنيّون عن موسى وعن أنبياء العهد القديم. وهذا الدليل هو الجانب السلبيّ للقول بأنّ الله، في عنايته الإلهيّة، منح الوثنيّين «نقاط حقيقة». ولذلك كان الآباء الأقلّ تأييدًا للثقافة الوثنيّة يستندون إليه غالبًا. وهو أيضًا دليل على جانب كبير من الأهمّيّة في أدب الدفاع المسيحيّ، وذلك لسبب بسيط.

كانت المسيحيّة تظهر بمظهر ديانة جديدة، إلى جانب الديانات التقليديّة الوثنيّة القديمة. فلم يكن لها الوزن والأهليّة للاحترام اللذان لا يمنحهما إلّا طول الزمن. ولكنّ الآباء لم يجدوا صعوبة في دحض دليل «الجِدَّة». فإنّ الديانة المسيحيّة هي ديانة العهد الجديد الذي يُكمل العهد القديم، والذي أنبأ به هذا العهد القديم منذ الأزمنة العريقة في القدم. إنّ المسيحيّة ترقى بعيدًا في الزمن، وموسى، الحكيم القديم، سبق أن أنبأ بمجيئها في مؤلّفاته. فدليل «الاقتباسات» عن موسى له هدفان: يدلّ، من جهة، على قِدَم المسيحيّة وأهليّتها للاحترام، ويُظهر، من جهة أخرى، أنّ الحكمة التي عند الوثنيّين والتي يحترمونها تصدر مباشرة عن المسيحيّة عن طريق العهد القديم.

وفي «مجموعة الأبحاث» فقرتان صريحتان جدًّا في شأن الاقتباسات التي أخذها الوثنيّون عن الكتب المقدّسة. ففي نظر إقليمنضس، كما في نظر غيره من الآباء، مصدرها هو موسى، الكاتب الملهَم، والبربريّ في نظر اليونانيّين. إليك النصّين: «يبدو أنّ جميع تلك التعاليم، التي سبق الكلام عليها، سُلِّمت منذ موسى الكبير حتّى اليونانيّين»[٣٠]. «ومن الواضح بالكفاية أنّ سائر الفضائل كلّها أيضًا، التي وصفها موسى، كانت لليونانيّين منطلق مادّتهم الأخلاقيّة، أي الشجاعة والاعتدال والفطنة والعدل والجَلَد والصبر والحياء والعفّة، والتقوى فوق كلّ شيء (...).

(٣٠) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, II, 5, 1.*

في ما يتعلّق بالعدل، فإنّ الشريعة نفسها هي التي تخلّفه بعملها التربويّ، إلى جانب الفطنة، بإبعادها الإنسان عن الأوثان الحسّيّة وبتعيينها هدفًا له أن يذهب إلى ذلك الذي هو خالق الكون وأبوه، وانطلاقًا من هذه الفكرة، كمن ينبوع، ينمو كلّ إدراك»[٣١]. رأينا أعلاه أنّ إقليمنضس أقام قياسًا بين شريعة موسى والفلسفة اليونانيّة، إذ إنّ كليهما مربٍّيا شعب كلٌّ منهما - اليهوديّ وغير اليهوديّ - باتّجاه المسيح. إنّ موضوع «الاقتباسات» هو في امتداد ذلك القياس، علمًا بأنّ المصدر هو الله. وهذا النصّ الأخير يساعدنا على أن ندرك كيف كان الله، في نظر إقليمنضس، مصدر الفلسفة «غير المباشر». كان الله ذلك بفضل الاقتباسات المأخوذة عن الشريعة الموسويّة. ذلك بأنّ العناية الإلهيّة، في هذه الحالة المعيَّنة، تتجسّد في شريعة العهد القديم التي اقتبس منها بعض الفلاسفة الوثنيّين.

يمكننا الآن أن ندرك أهمّيّة موضوع الاقتباسات المأخوذة عن الكتاب المقدّس. فحين نذكر الاقتباس، نعني، في الوقت نفسه، باطنيّة الكتاب المقدّسة بالنسبة إلى مؤلّفات الفلاسفة الوثنيّين. ومن جهة أخرى، نُثبت كيف أنّ الوحي الذي أوحى الله به إلى اليهود بُلِّغ إلى الوثنيّين، مُظهرين بالتالي حقيقة العناية الإلهيّة التي تريد أن يخلُص جميع البشر.

ز - إضطُهد الوثنيّون الصالحون من قبل الشيطان

لم يَخْشَ إقليمنضس الإسكندريّ وحده ما يضعه الشيطان من عقبات. فهذا ما أكّده أيضًا يسطينس، وإلى حدّ ما طرطليانس نفسه. تحدّث يسطينس مرّتين، في «دفاعه» الأوّل، عن دسائس الشيطان لإسكات الذين كانوا يقولون شيئًا في الحقيقة. إليك النصّ الأوّل: «عمل الشياطين على الحكم بالموت على الذين يقرأون كتب هِسْتَسْبُس أو العرّافة أو الأنبياء، لإفزاع الناس ولردّهم عن البحث في هذه القراءة عن معرفة الخير (...). لكنّهم لم يستطيعوا تحريم هذه الكتب للأبد»[٣٢]. أظنّ أنّ هذا

---

(٣١) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, II, 18, 1.*

(٣٢) JUSTIN, *Apologie, I, 44.*

النصّ لا يحتاج إلى تعليق. فإنّ يسطينس يُحسن وصف الصراع الذي يشنّه الشيطان ليمنع الوثنيّين بجميع الوسائل من تقبُّل «نقاط الحقيقة». كانت كتب هِسْتَنْبُس والعرّافة موضع تقدير كبير عند المسيحيّين الأوّلين، لأنّ المفروض فيها أن تتضمّن تنبّؤات تتعلّق بالمسيح. فكانت دليلًا لا يُدحَض في نظرهم على أنّ مجيء المسيح والمسيحيّة أُنبئ به حتّى عند الوثنيّين، وإن بوضوح أقلّ ممّا نجده في العهد القديم.

وكتب يسطينس أيضًا في الدفاع نفسه: «إنّ المسيح هو بكر الله وكلمته، الذي يشارك فيه جميع البشر: هذا ما تعلّمناه وما صرّحنا به. فالذين عاشوا بحسب الكلمة هم مسيحيّون، وإن عُدّوا ملحدين كسقراط وهيراقليطس وأمثالهما عند اليونانيّين، وإبراهيم وحنيا وعزريا وميشائيل وإيليّا والعديد من الآخرين، عند البرابرة، وقد يطول الكلام على أعمالهم وأسمائهم (...). أمّا الذين عاشوا أو يعيشون بحسب الكلمة فهم مسيحيّون، خالون من الخوف والقلق»[٣٣]. كان من الممكن أن يُستشهَد بهذا النصّ في مكان آخر، لكنّه في محلّه هنا أيضًا. وجدير بالذكر أنّ يسطينس يُسبق قوله بأنّ جميع الذين عاشوا بحسب الكلمة هم مسيحيّون، سواء كانوا معمَّدين أم لا، بتوضيح يختصّ بالإلحاد المزعوم والمنسوب إلى أولئك المسيحيّين الخفيّين. والحال أنّ السلطات الرومانيّة كانت تتّهم المسيحيّين بالإلحاد. وهذا يعني أنّه، إذا اضطُهد المسيحيّون لأنّهم لا يعبدون الآلهة التقليديّين، فإنّ بعض الوثنيّين كسقراط وهيراقليطس اضطُهدوا أيضًا للأسباب نفسها. ذلك بأنّهم كانوا يعبدون الإله الحقّ وحده. ولذلك يُضيف يسطينس بعدهما أسماء إبراهيم والفتيان الثلاثة الذين وردت أسماؤهم في سفر دانيال والذين كانوا قد أُلقوا في «أتون النار»[٣٤] لأنّهم لم يعبدوا تمثال الملك. فمَن الذي كان قادرًا على دفع السلطات الوثنيّة إلى إعدام الذين وجدوا الحقيقة، غير الشيطان، عدوّ الحقيقة؟

---

(٣٣) JUSTIN, *Apologie, I*, 46.

(٣٤) دا ٣/ ٢٠

٣ - مواقف الآباء غير المؤيِّدة والانتقاديّة

سبق لنا أن قلنا في المقدّمة إنّ مواقف الآباء من الوثنيّة متنوّعة جدًّا. فكان بعضها غير مؤيّد صراحةً لكلّ ما هو غير مسيحيّ، في حين كان بعضها الآخر، إلى جانب تعاطفها مع الثقافة الوثنيّة، انتقاديًّا بوجه خاصّ لما يختصّ بعبادة الأوثان والفلاسفة الذين يمارسون سحر الآلهة. فالمطلوب أن نبحث الآن في هذين الموقفين.

أ - الرفض التامّ لما هو غير مسيحيّ

كان الحكم السابق على الفلسفة الوثنيّة عند طرطليانس أشدّ صراحة، فإنّ طبعه المتصلّب لم يكن يمكّنه من التدقيق في حكمه. وكان التساهل مع ضميره مستحيلًا، فبعد الانتقال إلى جانب المسيح، إلى جانب الحقيقة والإيمان، يجب نبذ كلّ ما ليس هو مسيحيًّا بجملته: «فأيُّ شركة بين آثينة وأورشليم، بين المجمع والكنيسة، بين الهراطقة والمسيحيّين؟ إنّ تعليمنا آتٍ من الرواق، ولكن من رواق سليمان، الذي يعلّمنا هو نفسه «أن نبحث عن الله في سلامة القلب». ففي ماذا يفكّر الذين يريدون أن يصنعوا لنا مسيحيّة رواقيّة أو أفلاطونيّة أو جدليّة؟ لا، لا، لسنا في حاجة إلى فضولٍ بعد يسوع المسيح، ولا إلى أبحاث بعد الإنجيل. فحين نؤمن، لا نعود نبحث عن أيّ شيء ما وراء إيماننا، لا بل هذا أوّل بند من بنود إيماننا، وهو أنّه لم يعد هناك أيّ شيء يجب الإيمان به بعد ذلك»[٣٥].

إنّ هذا النصّ بليغ بالكتابة ولا يتطلّب إلّا القليل من التعليق. صحيح أنّ طرطليانس لا يعلن موقفه من الفلسفة بصفتها «مربِّية باتّجاه المسيح». وهو يشدّد على أنّ المسيحيّ لا يحتاج، أو لم يعد يحتاج، إلى الاهتمام بالفلسفة الوثنيّة. فهو يبدو أنّه يُنكر تمامًا دروسه السابقة، حتّى إنّه يجوز لنا أن نتساءل هل كانت له الفلسفة، يومًا من الأيّام، عونًا مفيدًا عند اهتدائه،

---

(٣٥) TERTULLIEN, *De la prescription contre les hérétiques* 7.

أجيب بالنفي. لم يكن اختباره الشخصيّ اختبار يسطينس أو إقليمنضس الإسكندريّ، فإنّه يتّخذ موقفًا يعارض تمامًا موقفهما. هذا وإنّ جملة مُعاصره إقليمنضس: «لا أجهل ما يكرّره بعض الخِرّيفين، وهو أنّه لا يجوز الاهتمام إلّا بالأمور الأكثر ضرورة، بتلك التي تتضمّن الإيمان، وإهمال الأمور الغريبة وغير الضروريّة التي تُتعبنا عبثًا وتوقفنا عند مواضيع غير مفيدة للغاية النهائيّة»، لولا كلمة «خِرّيفين»، ولا شكّ أنّ طرطليانس لم يكن منهم، لوصفت موقفه وصفًا صائبًا. أمّا جملة طرطليانس «ففي ماذا يفكّر الذين يريدون أن يصنعوا لنا مسيحيّة رواقيّة أو أفلاطونيّة أو جدليّة»، فإنّها تنطبق تمامًا على إقليمنضس. ومن الواضح أنّ هذين الموقفَين كانا معروفَين إذ ذاك في الكنيسة.

ب - رفض العبادة الوثنيّة والشياطين الذين يستترون وراء الأوثان

من بين مواقف الآباء غير المؤيِّدة، نجد موقفًا أكثر دقّةً من الموقف السابق. يميِّز الآباء بين الثقافة الوثنيّة والدين الوثنيّ. وإذا كانوا يسلّمون بأنّ الثقافة، ثمرة ذكاء الإنسان، قد تكون لها فائدة تربويّة من أجل المسيح، فكان لا يسعهم إلّا أنّ يرفضوا الدين الوثنيّ وعبادته الوثنيّة. وكانت كلّ عبادة تؤدّى لغير الله لا يمكن أن تكون إلّا خداعًا من قبل الشيطان. ولكن لا يخفى إلى أيّة درجة قد تتداخل العبادة والثقافة وإلى أيّة درجة يصعب الفرز. إليكم مثلًا يأتي به إقليمنضس في الأسطر الأولى من كتاب «مجموعة أبحاث»: «بما أنّ الكتاب المقدّس يصف اليونانيّين بـ «سُرّاق» الفلسفة البربريّة، فلعلّ الوقت قد حان لنرى كيف يمكن إقامة الدليل بإيجاز على أنّهم سرّاق. لا نكتفي بالدلالة على أنّهم، بتقليدهم معجزات تاريخنا، وصفوا معجزات تاريخهم، بل نُثبت عليهم أنّهم يبحثون عن عقائدنا ويزوِّرون أهمّها - إنّ أسفارنا المقدّسة هي أقدم منهم ولقد أثبتنا ذلك[٣٦] - في ما يختصّ بالإيمان والحكمة والمعرفة والعلم والرجاء والمحبّة والندامة والعفّة، ولا سيّما مخافة الله»[٣٧].

(٣٦) Cf. *Les Stromates I, 21-22.*

(٣٧) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, II, 1, 1.*

قد يفاجئنا أسلوب هذا النصّ الذي كتبه إقليمنضس، فإنّه يتعاطف عادةً مع اليونانيّين. أمّا هنا فإنّه يصفهم بـ «السرّاق». قد لا نستغرب ذلك بقدر ما كان يعتبر أنّ «الاقتباسات» هي سرقات من الأسفار المقدّسة. ولكن هناك ما هو أخطر، فإنّه يتّهمهم بتقليد المعجزات التي وردت في التاريخ المقدّس، وبتزوير العقائد. من أين هذه الاتّهامات؟

أظنّ أنّ مؤلّفات طرطليانس قد تأتينا بالجواب. فإنّ طرطليانس، الذي يتكلّم في رسالة الطعن «العرش» مثلًا، على العبادات الوثنيّة، ولا سيّما عبادة مِثْرا المنتشرة جدًّا عند العسكريّين الرومان، يلاحظ أنّ هناك وجوه شبه ببعض ملامح العبادة المسيحيّة. وبالاستناد إلى نصّ يو ٨/ ٤٤ حيث ورد أنّ الشيطان هو كذّاب منذ البدء، يقول بأنّ «الشيطان عمل على تقليد الألوهة[٣٨]. فوراء كلّ وثن يستتر شيطان. ومن هنا تقليد العبادة. وفي كتابه «الردّ على اعتراض الهراطقة السابق»، يقول بأنّ أنصار (جنود) مِثْرا، بعد أن يُقسموا يمين الإخلاص لإلههم، يوسَمون بالحديد والنار على جباههم[٣٩]. والحال أنّنا نعلم بأنّ خادم المعموديّة يختم جبهة المعمَّد بالميرون المقدّس، واسمًا إيّاه بختم الروح القدس. فلماذا هذا التقليد؟ لأنّ نشاط الشيطان يقوم على «إهلاك الإنسان»[٤٠]، بحسب قول طرطليانس، وهذا عكس نشاط الله الذي يريد أن يخلُص جميع البشر (١طيم ٢/ ٩٤).

يستعمل إقليمنضس في نصّه، على غرار طرطليانس، عبارات «تقليد المعجزات» و«تزوير العقائد». في شأن المعجزات، هل يقصد إقليمنضس المعجزات التي صنعها شخص معيَّن، كأبولونيوس التيانيّ؟ وهل يستهدف إقليمنضس تقوى وثنيّة معيَّنة تتّسم أحيانًا بملامح مسيحيّة، وكانت منتشرة جدًّا في زمنه؟ لا نستطيع أن نُجيب بالتأكيد. ولكنّنا نستطيع أن نقول بأنّ

---

(٣٨) Cf. TERTULLIEN, *De Corona (De la Couronne)*, 7, 8.

(٣٩) Cf. TERTULLIEN, *De la prescription contre les hérétiques*, 40, 4.

(٤٠) TERTULLIEN, *Apologétique*, 22,4.

إقليمنصس يعي أنّه ممكن دائمًا، بالرغم من العناية الإلهيّة، أن تتدخّل خُدَع الشيطان لتحول دون عمل الله.

ويتحدّث القدّيس أوغسطينس عن عبادة الأوثان، في عدّة أماكن من مؤلّفه الكبير «مدينة الله». وهو، على غرار مَن سبقوه، لا يرى فيها إلّا أكاذيب، وعمل الشياطين والبشر وثمرة تعاون بينهم. إليك نصًّا أوّل: «ماذا تُضيف؟ إلّا أنّ المدن ليس لها رسوم صحيحة للآلهة الحقيقيّين، لأنّ الإله الحقيقيّ ليس له جنس ولا عُمر ولا أعضاء جسديّة محدّدة». وهذا ما لا يريد الحَبْر[٤١] أن يُطلع الشعبَ عليه، لأنّه لا يعتبره خاطئًا، فهو يعتبر مفيدًا للمدن أن تُخدَع في الشؤون الدينيّة. هذا وإن قُرُّون نفسه لا يتردّد في القول بذلك في كتبه حول الأمور الدينيّة. ما أروع الدين الذي يستقبل الضعيف الذي يبحث عن الخلاص! وإذا طلب الحقيقة لينال الخلاص، يظنّون من الأفضل أن يُعطى الكذب»[٤٢].

نشعر بأنّ أسقف هيبونه مصدوم بتصرُّف أناس مشهورين كقُرُّون والحبر الأعظم سْكيفولا اللذَين كانا موضع تقدير كبير عند الرومان. صحيح أنّ أوغسطينس يقيم دعوى على سوء نيّة، متّهمًا قُرُّون وسْكيفولا بقلّة نزاهة، فإنّهما كانا يؤمنان بفائدة الدين للحفاظ على تماسك المدينة وحياتها وللمساعدة على النظام. وما يجب أن نستخلصه هذا النصّ هو أنّ الدين كَذِب يخدع الناس الذين يبحثون عن الخلاص.

٤ - الاهتداء إلى المسيحيّة

ولكن لماذا كلّف الآباء أنفسهم لاتّخاذ موقف من الدين والثقافة الوثنيّة؟ هناك أكثر من جواب على هذا السؤال، والجواب الأوّل هو أنّ الآباء كانوا يعترفون بدين يختلف كلّ الاختلاف عن سائر الأديان الممارَسة في المسكونة الرومانيّة. في نظر المسيحيّ، لم يكن دينه دينًا من

---

(٤١) Quintus Mucius Scaevola.

(٤٢) AUGUSTIN, *De la Cité de Dieu, IV, 27.*

بين العديد من الأديان. فإنّ المسيحيّة كانت ترفض كلّ توفيقيّة وكلّ توافقيّة. فكان على المسيحيّ، في وجه الأسئلة والتهجّمات، وفي وجه الاضطهاد، أن يشرح موقف المسيحيّة من الوثنيّة، ومكانتها الفريدة. وهذا هو السبب الذي دفع عدّة مسيحيّين بارزين إلى تأليف دفاعات، وشرح ما تختلف فيه المسيحيّة عن سائر الأديان الممارَسة آنذاك. وكان عدم اعتراف المسيحيّين بألوهة آلهة المدينة لا يعني عدم اعترافهم بالدولة وبالولاء للأمبراطوريّة[٤٣]. كانت هذه ظاهرة جديدة تمامًا.

والجواب الثاني هو أنّ الآباء، نظرًا إلى ماضيهم الشخصيّ وتربيتهم، كانوا مجبولين بالثقافة والدين الوثنيّ أكثر من أن لا يعيدوا قراءة حياتَهم في ضوء إيمانهم المسيحيّ. ولكن هناك جواب ثالث، وهو أنّ بعضهم أرادوا أن يهدوا الوثنيّين المثقّفين، بإشراكهم في اختبار اهتدائهم الشخصيّ. أرادوا أن يُثبتوا أنّ الاهتداء إلى المسيحيّة لم يكن انحطاطًا عن مثال أعلى فلسفيّ، بل كان، بالعكس، تتويج بحث عن الحقيقة قاموا به بقيادة أفلاطون مثلًا. وفي نظر إقليمنضس الإسكندريّ، لم يكن الاهتمام الأوّل الدفاع عن إيمانه بقدر ما كان إقناع الوثنيّين بأنّ حالة المسيحيّ هي حالة جيّدة، فكان «إرشاده» حثًّا على الاهتداء. وفي مطلع الكتاب الثاني من «مجموعة الأبحاث»، أعلن عن قصده الدعوة إلى اهتداء الوثنيّين – واليهود – بالإقناع، باستخدام الأداة التي تضعها الثقافة الوثنيّة نفسها في تصرّفه. وكانت هذه الأداة فنّ الإقناع، أي الخطابة. واليكم ما كتبه: «وفضلًا عن ذلك، فمن الأمور البديهيّة، على ما أعتقد، أن يستخدم دفاعُنا الكتب المقدّسة، في ما يختصّ بالنقاط التي يطعن فيها اليونانيّون، حتّى يستطيع اليهوديّ أيضًا الذي قد يصغي إلينا، انطلاقًا من إيمانه، أن يهتدي إلى الذي لم يؤمن به حتّى الآن. ومن الطبيعيّ أن يُعرَض أفضل الفلاسفة، بانتقاد حياتهم وانتقاد التعاليم الجديدة التي ابتكروها، وذلك

(٤٣) يمكننا أن نعود إلى دفاع طرطليانس، حيث نجد فكرة الفصل بين الدين والدولة، وهذا ما سُمّي في وقت لاحق الفصل بين الكنيسة والدولة.

بمحبّة. لن نردّ المتّهمين - شتّان أن نفعل ذلك، إذ إنّنا تعلّمنا أن نبارك الذين يلعنوننا، حتّى إن أضاعوا وقتهم في توجيه الخطب الشاتمة إلينا - بل نسعى لهدايتهم، فقد يعقل أولئك الأشخاص الحكماء بالحجج البربريّة فيشعرون بالندامة ويصبحون بذلك قادرين، ولو في زمن متأخّر، على تمييز طبيعة المعارف التي يُقدمون في سبيلها على حملاتهم ما وراء البحار»(٤٤).

يريد إقليمنضس هنا أن يتّبع فنّ الخطابة ويعرض حججه المقتبسة من الكتاب المقدّس. ولذلك يتحدّث عن إقامة الدليل البربريّة. وهو يسعى إلى هدف مزدوج: من جهة، هداية اليهود الذين، بفضل حججه، يقتنعون بأنّ العهد القديم يوصل طبعًا إلى المسيح، ومن جهة أخرى، هداية الوثنيّين، بفضل نموذج إثبات يختلف عن النموذج الذي ألِفوه. فقد يُخشى أن يرتبكوا به، ولكن إقليمنضس يعتمد على حكمة أولئك الوثنيّين المثقّفين، ليساعدوهم على الاعتراف بالحقيقة حيثما ترد، وعلى الانقياد لها.

وهذه الحكمة الجديدة التي سيحصلون عليها تقوم، قبل كلّ شيء، على الاعتراف بأنّ تتويج المعرفة الذي بحثوا عنه من دون كلل هو في إقامة الدليل البربريّة هذه وفي الأسفار المقدّسة التي هي مصدرها الوحيد. ولكن هذا السير يسبقه نوع من التعليم الإعداديّ، يقوم على ما يسمّيه إقليمنضس «انتقاد حياة أفضل الفلاسفة والتعاليم الجديدة التي ابتكروها». والغاية منه هو تطهير نظرة أولئك الوثنيّين، تلاميذ كبار الفلاسفة، لكي «يصبحوا بذلك قادرين على تمييز طبيعة المعارف التي يُقدمون، في سبيلها، على حملاتهم ما وراء البحار»، أي على الشعور بتفاهة أبحاثهم السابقة وبصحّة البحث الحقيقيّ الوحيد، الذي يؤدّي إلى الحقيقة وإلى الخلاص.

---

(٤٤) CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, II, 1*, 2

٥ – الخاتمة

يتّضح ممّا سبق أنّ موقف الآباء من الوثنيّين كان لصالحهم بوجه عامّ. ولم ينتج عن انفتاح عقليّ فقط. فإنّ الآباء كانوا ملزمين باتّخاذ موقف من الوثنيّين والوثنيّة باسم إيمانهم المسيحيّ نفسه. وإنّ عقائد خلق العالم والتجسّد هي التي كانت تمنعهم، وتمنع غيرهم من مسيحيّي زمنهم، من الانغلاق في مسيحيّتهم. ولماذا؟

تجلّى إله المسيحيّة بصفته إله المحبّة التي هي، في جوهرها، علاقة. ولذلك، فإنّه خالق جميع البشر ومخلّصهم، لأنّه لا يستطيع أن يُهمل خليقته. وانطلاقًا من هذا المبدأ، لم يكن في إمكان الآباء أن يقبلوا بأن لا يهتمّ الله إلّا باليهود، بالشعب المختار، وأن يترك سائر البشر وشأنهم، الأمر الذي يناقض إيمانهم ومعطيات الكتاب المقدّس. فلا بدّ أن يكون للوثنيّين مكانهم في تخطيط الله الخلاصيّ ونصيبُهم في التدبير الإلهيّ. فإنّ هذا التدبير ينقسم، في نظر الآباء، إلى قسمين: الأوّل لصالح الشعب المختار، وهو العهد القديم، والآخر لصالح بقيّة البشر، وهو العناية الإلهيّة. ولذلك استطاع إقليمنضس الإسكندريّ أن يتحدّث عن ثلاثة عهود: إثنان قديمان وواحد جديد(٤٥). والآباء اكتشفوا طريقتَين تربويّتَين إلهيّتَين أرشدتا الشعبَين، اليهود والوثنيّين، إلى المسيح. بحث إيريناوس الليوني مطوّلًا في طريقة الله التربويّة في العهد القديم(٤٦). أمّا إقليمنضس، فهو الذي تحدّث بوجه خاصّ، كما رأينا، عن طريقة الله التربويّة لصالح الوثنيّين، عن طريقة ظهرت بواسطة فلاسفتهم. لا بل ذهب أوريجانيس وأوغسطينس إلى أبعد من ذلك فسلّما بإمكانيّة وجود إلهام حقيقيّ من قبل الله عند بعض «الأنبياء» الوثنيّين. وأيًّا كانت طريقة العهدَين «القديمَين» التربويّة، فإنّها استهدفت القيام بتربيتهم للذهاب إلى

---

(٤٥) Cf. CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Stromates, VI, 5.*

(٤٦) Cf. IRENEE DE LYON, *Contre les Hérésies, passim* et spécialement les livres III et IV.

المسيح[٤٧].

وهكذا نصل إلى عقيدة التجسُّد. إنّ هذه العقيدة هي الذروة التي يجد فيها عمل الله الخلّاق تتويجه واكتماله. كان للطريقة التربويّة الإلهيّة هدف مباشَر، وهو إعداد البشر لأن يروا، في يسوع الناصريّ، كلمة الله المتجسِّد الذي، بكشفه عن معرفة الآب، أجرى الخلاص. فما الفائدة في أن يُخلَق الإنسان، إن لم يصل إلى غاية وجوده، أي إلى محبّة الله المخلِّصة؟ وهذا ما عبَّر عنه أوغسطينس في النصّ التالي: «إنّ الحقّ نفسه، الإله ابن الإله، باتّخاذه الإنسان من دون أن يلاشي الإله، أقام هذا الإيمان لكي يفتح للإنسان الطريق الذي، بواسطة الإنسان الإله، يُرشد إلى إله الإنسان. فهذا هو الوسيط بين الله والبشر، الإنسان يسوع المسيح (...). وإذا كان هناك طريق بين الذي يتَّجه والغاية التي يتّجه إليها، فهناك أمل في الوصول، وإذا لم يكن هناك طريق، فما الفائدة في معرفة الغاية»؟[٤٨]. إنّ جملة أوغسطينس الأخيرة هذه تدلّ على أنّ خلق العالم والعناية الإلهيّة – التي تنتج عنه عادةً – يبقيان ناقصَين بدون التجسُّد. ما الفائدة في إعداد الإنسان للاتّجاه، بفضل «بذور الحقيقة»، نحو كمال معرفة الله، إن لم يتجسَّد الكلمة المؤدِّب «ليكون الطريق» الذي، بواسطة الإنسان الإله، يرشد إلى إله الإنسان؟ لولا التجسّد، لولَّدت «بذور الحقيقة» هذه وجاءً لا يمكن تحقيقه، والحال أنّ الله لا يسخر من مخلوقاته.

فالتجسّد هو مستهلّ، أو هو بالأحرى، وفي آن واحد، نقطة وصول ونقطة انطلاق. إنّه نتيجة الطريقة التربويّة والعناية الإلهيّة. إنّه بداية نموذج وجودٍ جديد للإنسان. وهذا ما أدركه الآباء. فهناك، في نظرهم، ما قبل التجسّد وما بعده، وإقليمنضس الإسكندريّ يتحدَّث عن «قبل مجيء الربّ» و«الآن»[٤٩]. ويقول أيضًا بأنّ الفلسفة قامت بتربية اليونانيّين «قبل أن

---

(٤٧) Cf. CLEMENT D'ALEXANDRIE, *Les Stromates, I, 5.*

(٤٨) AUGUSTIN, *Contre les académiciens, III, 19, 42.*

(٤٩) Cf. *Les Stromates I, 5, 28,* ذُكر سابقًا.

يوسّع الربّ دعوته إليهم»[٥٠]. أمّا أوغسطينس، فهو يتحدّث عن «قبلَ التجسُّد»[٥١]، إذ إنّ كلّ شيء يُرى ويفكّر فيه بالنسبة إلى المسيح، وإلى شموليّة رسالته والخلاص الذي أتى به. بوجه عامّ، كان الآباء يُحسنون تقدير ما في تراث الوثنيّين الثقافيّ من خير. وهذا التراث كان له مكانته في تخطيط الله الخلاصيّ. أمّا الآن، بعد مجيء المسيح، فإنّ تخطيط الله يدعو أولئك الوثنيّين أنفسهم إلى اجتياز العتبة وإلى الانضمام إلى المسيح، لأنّ كلّ شيء صُنع بالنسبة إليه. ومن هنا دعوات الآباء الملحّة إلى الاهتداء.

إنّ عقيدَتي خلق العالم والتجسُّد تفترضان وجود الزمن والتاريخ. ذلك بأنّ تخطيط الله الخلاصيّ لجميع البشر يتمّ في زمن البشر. إبتدأ هذا التاريخ في خلق الإنسان وعرف اكتمالًا عند التجسُّد، اكتمالًا يُنبئ بنهايته عند مجيء المسيح الثاني. إنّ ما في الوحي، وبالتالي ما في المسيحيّة، من بُعد تاريخيّ لم يغب عن فكر الآباء. والحال أنّ دور هذا البعد التاريخيّ لا يقتصر على مستوى البشريّة جمعاء، بل يشمل أيضًا مستوى كلّ إنسان بمفرده. إنّه التاريخ الشخصيّ لكلّ فرد، فالآباء كانوا يميّزون بين نوعَي التاريخ. فالذي حدث على مستوى تاريخ البشريّة جمعاء ومرّة واحدة يمكن - ويجب - أن يحدث على مستوى الفرد. وعند كلّ وثنيّ يهتدي، نرى أنّ الاستعداد من أجل المسيح، الذي تمّ فيه بفضل تراثه الثقافيّ الخاصّ، يكتمل إلزاميًّا في استقبال المسيح ورسالته الفعليّ.

---

(٥٠) Cf. *Les Stromates I, 5, 28, 2 - 3* ذُكر سابقًا.

(٥١) Cf. *Lettre 102, 12* ذُكر سابقًا.

صدر عن دار المشرق

يصدر قريبًا: أقوال الشيوخ. حكم آباء البرّيّة،
اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ